صوت القوة الناعمة

محرم فؤاد

بعد رحيل المطرب محرم فؤاد تنطوى صفحة جميلة من صفحات فن الغناء الجميل. فصوته كان يحمل تميزا بارزا بين أصوات جيله. وما بعدها..

وصوت محرم فؤاد هو القوة السلسة فلا تعثر فى كل ما غناه على نغمة مخنثة أو مفتعلة وإذا كانت البلهارسيا واليتم قد كسرت صوت عبد الحليم حافظ وكسته بالحزن والأنين، فإن صوت محرم حسين أحمد على وهذا اسمه الحقيقى قد نما وترعرع فى حى شبرا الشعبى بقيمه وقدراته المصرية المعروفة.

تعلم العزف على العود، ومارس التلحين منذ صباه بجانب الغناء، فكان المطرب المنفرد فى جيله بالتلحين الناجح لنفسه. وللآخرين. فقد تحمس لصوتى سوزان عطية ومدحت صالح ولحن لهما وأنتج أيضا.

والمتابع للمسيرة الغنائية لصوت محرم يلاحظ أنه بدأ كبيرا فى فيلم «حسن ونعيمة» عام ١٩٥٨ فقد كان صاحب تجربة غنائية طويلة فى ملاهى القاهرة بعد أن غنى أمام الملك فاروق فى مدرسة شبرا الابتدائية وغنى فى فرح أحد الأقارب فدعته واحدة من العوالم لزيارتها حتى تقدم له المساعدة المناسبة فى دنيا الاحتراف. ثم ظل يغنى فى الموالد وهو مازال طفلا. والمتابع سوف يلاحظ أيضا أن صوت محرم قد اختلف فى ملامحه بعد الفيلم السادس الذى صوره فى بيروت فقد أصابه الإجهاد الدائم باحتباس لم ينج منه إلا بعلاج مكثف فى مستشفيات جنيف بسويسرا ومع ذلك تغيرت ملامح صوت محرم إلى أكثر غلظة ومع ذلك لم يتأثر إحساسه القوى الرائع.

لقد عاش محرم عصر العمالقة محمد عبد الوهاب الذى أنتج له «حسن ونعيمة» ولم يلحن له على رغم أن محرم كان يغنى فى مرحلة ما قبل الشهرة أغنيات عبد الوهاب وفريد الأطرش الذى لحن له واحدة من أشهر أغانى مصر فى الستينيات وهى «يا واحشنى رد عليه»..

وعاش عصر عبد الحليم حافظ ولم يكرهه بل قال لى: أنتم تظلمون عبد الحليم عندما تقولون إنه «العندليب» فهو أكثر من عندليب لأن صوته فيه زقزقة كل أنواع الطيور الجميلة الصوت.

ولم يكن لمحرم جهاز علاقات عامة كما كان لمطربى عصره ولم يكن نجم سهرات ومجتمعات فهو لم يغن فى حفلات إذاعية أو تليفزيونية إلا نادرا ومع ذلك فقد أهّله صوته لمكانة مرموقة فى الغناء. وساعدته ملامح الرجولة الجميلة فى وجهه لنجاح غير عادى فى السينما.

وكما كان عادلا فى إعطاء نجم الغناء الأول فى عصره عبد الحليم حافظ حقه. كان عادلا عندما دعيناه لينضم إلى لجنة التحكيم فى مسابقة نادى المواهب الشابة فى مجلة أكتوبر فقد كان من بين المتقدمين إليها طارق محرم فؤاد ابنه ولما جاء الدور عليه استأذن ليخرج حتى يترك الفرصة للحكم العادل.

لقد ظهر نبوغ محرم حسين فى الغناء منذ التحق بمعهد شفيق للموسيقى ثم بارتباطه بفرقة «ساعة لقلبك» واكتشاف عبد الرحمن الخميسى فى فيلم «حسن ونعيمة» الذى أصبح ملمحا من ملامح السينما العربية حيث قدم نجمين كبيرين شاءت الصدف أن تكون ذكرى رحيلهما فى أسبوع واحد. هما سعاد حسنى ومحرم فؤاد. ومعهما ملحن الفيلم ورفيق الطريق الطويل لمحرم. ذلك هو الموسيقار محمد الموجى الذى لحن لمحرم أعظم أغنياته وغنياها معه. فى مشواره الفنى الذى استحق أن نردد ما وصفته به الجماهير من أنه صوت النيل «أو فتى النيل» وما نصفه به على أنه صوت الرجولة الناعمة. أو صوت القوة السلسة.

كان من المتوقع. حسب قانون السينما الغنائية العربية. أن تتوقف مسيرة محرم فؤاد فيها بعد فيلمه «حسن ونعيمة» الذى عرض من اخراج هنرى بركات عام ١٩٥٩. ولو كتب له ان يستمر. فلمدة محدودة فى فيلم أو بضعة أفلام.

هـذا مـا حدث مع عبد الوهـاب. وأم كلثوم. ومحمد قنديـل. وكارم محمود. ومحمد عبدالمطلب. ومحمد الكحلاوى. ولم يسـتثن من القاعدة إلا محمد فوزى (٣٥ فيلما) وفريد الأطرش (٣١ فيلما) وعبد الحليم حافظ (١٦ فيلما).

وحتى جيل محرم فؤاد من المطربين لم يخرجوا عن القاعدة كمال حسـنى (فيلم واحد) هو ربيع العمر أمام شـادية. وعادل مأمون (فيلمان) وماهر العطار (٥ أفلام) وعبد اللطيف التلبانى (٤ أفلام).

لكن محرم قام ببطولة كاملة لثلاثة عشر فيلما. خمسة منها لبنائية الإنتاج. وواحد (عشاق الحياة) من إنتاجه. وهذا العدد الكبير اقترب به من مسيرة عبد الحليم حافظ السينمائية. وهـذا الإنجاز يرجع لجمال وقـوة وصوت محرم وصفاته. وأيضًا للوسـامة والجاذبية التى منحها له الله بجانب موهبته فى الغناء. والتلحين.

محرم مختلف فى التركيبة الشكلية. وأيضا النفسية. كان معتزا بنفسه وبموهبته متمسكا بأصولـه الأولى من حيث نشـأ فى رحاب السـلطان أبو العلا فى حـى بولاق ثم فى حى شبرا.

لم يمثـل محرم أمام لجنة اسـتماع الإذاعة التى تعتمد المطربـين وكان لها قانون يحتم على الراغب فى الاعتماد أن يغنى غناء حيا أمام أعضائها. لكن النجاح الذى حققه محرم فى فيلمه الأول. والشـهرة الطاغية التى نالتها أغنيتـا الفيلم «رمش عينه اللى جارحنى» و«الحلوة داير شـباكها» وهما من تأليف مرسى جميل عزيز وتلحين محمد الموجى. الذى أصر محرم فؤاد على ترشـيحه لهذه المهمة. وكان المنتج قد رشـح ملحنا آخر وهو النجم الكبير فى مجال التلحين، محمود الشريف.

فوافقت اللجنة على قبول تسجيل الأغنية ليكونا سببا فى اعتماده لدى الإذاعة.

ولم «تحـرق» الصحافة (محرم)، فلم تكتب عنه. وتجاهلته إلا من بعض مقالات نقدية لفيلمـه، ربمـا من باب مجاملة كاتـب القصة عبد الرحمن الخميسـى. أو للمخرج هنرى بركات أو للمنتج محمد عبد الوهاب.

ثـم اعتمدت الإذاعة محرم ملحنا وكانت أول ألحانه «الحلو هوانى بمنديله» وبعدها غنى من ألحان عبد العظيم محمد «أسمر وحليوه زين» و «زى نور الشـمس حبى وتنكره» ثم غنى من ألحان ملحن اسمه كامل أحمد على أغنية «خيالك فى عينى».

ثم دخل محرم مجال التلحين بجرأة، فقد نجحت أغنيته «قوللى بحبك قوللى.. عايز اسمعها تمللى» من تأليف حسين السيد فأصبحت أفلامه لا تخلو من لحن له.

وظل محرم صديقا للموسيقار محمد عبد الوهاب على التليفون، وصديقا مقربا من عبد الحليم حافظ، وهو ما لا يعرفه كثيرون، وقد كان عبد الحليم - والعهدة على الراوى - وهو هنا محرم نفسه يتجه إلى منزله بعد كل حفلة له يجلسان معا، يفضفض عبد الحليم لصديقه بأسراره وآماله وآلامه.

وكانت الناس تحكى الكثير عن حرب عبد الحليم لمحرم، تلك التى لم تكن تقل عن حربه لفريد الأطرش، وقد كذب محرم ذلك لى. لكن ذلك لا يمنع أن محرم كان يضع نجاح عبد الحليم نصب عينيه، فقام أكثر من مرة بتمثيل دور مطرب، أو شاب فقير يصبح غنيا. وتعامل مع المخرجين الذين تعامل معهم عبد الحليم ومنهم حلمى رفلة وحسام الدين مصطفى. ومع نجمات أفلامه زبيدة ثروت وآمال فريد وزيزى البدراوى ومريم فخر الدين ونادية لطفى ومديحة يسرى. أما سعاد حسنى بطلة أول أفلامه، والتى يعلم الله وحده هل تزوجت عبد الحليم أم لا، فقد قال لى محرم: وحياتك كنا أنا وهيه.. على وشك الذهاب للمأذون.

ظهر محرم فؤاد فى السينما أول مرة عام ١٩٥٩ فى فيلم «حسن ونعيمة» وهو أول ظهور لسعاد حسنى أيضا. وربما كانت هى المرة الأولى التى يتصدر أفيش فيلم وجهان جديدان تماما. وزاد من خطورة المغامرة أنهما يجسدان أدوار مطرب ريفى وفتاة فلاحة. أى إنه فيلم بلا رقص ولا إغراء على غير العادة فى السينما المصرية. وزادت الخطورة خطورة أن هذا الفيلم قد تم عرضه بعد تجربة لمطرب آخر لم تنجح وهو كمال حسنى فى فيلم «ربيع الحب» مع شادية لكن الفيلم حقق نجاحا ملحوظا فقد كانت الجماهير قد تابعت قصته كمسلسل إذاعى قبل انتقالها إلى السينما، ثم إن بطل الفيلم يعمل مطربا ريفيا وهو نموذج جديد ونادر فى أبطال أفلامنا، لقد صنع المخرج هنرى بركات من محرم فؤاد بطلا جديدا كما فعل أيضا مع سعاد حسنى.

وفى العام التالى ظهر محرم فؤاد فى فيلمين هما «لحن السعادة» إخراج حلمى رفلة و«وداعا يا حب» إخراج حسام الدين مصطفى. فى الأول غنى محرم «شفت بعينى» و«وانت عنى بعيد» بينما غنى فى الثانى «إوعى تكون بتحب يا قلبى».. و «من كام ليلة من كام يوم» و «يا حبيبى قوللى آخرة جرحى إيه».

وفى عام ١٩٦١ ظهر محرم فى فيلم «نصف عذراء» الذى اتسمت أجواؤه بالكآبة. وقد دخل بطل الفيلم محرم فؤاد السجن ليكون المرة الأولى فى السينما العربية التى يدخل فيها مطرب السجن. مما أبعد محرم عن السينما لمدة عام كامل إلى أن عاد فى فيلم «سلاسل من حديد» إخراج بركات وقد قام فيه مرة أخرى بدور مطرب وغنى فيه «زى ما أكون عطشان وشربت». وبعد أسبوعين فقط بدأ عرض فيلم آخر لمحرم فؤاد هو «من غير ميعاد» وهو الأفضل فى أفلام محرم فؤاد. ومرة أخرى جسد فى الفيلم دور مطرب ويغنى فيه «خمسة سياحة».

وفى عام ١٩٦٣ ظهر محرم فى فيلم «شباب خائن» إخراج السيد زيادة ولم يكن ذا قيمة فنية كبيرة. وكان سببا فى أن يرحل محرم إلى لبنان ليبدأ فى تصوير خمسة أفلام أولها «حكاية غرام» إخراج محمد سلمان ويؤدى فيه محرم دور شخصيتين أحدهما شاب قادم من أمريكا إلى بيروت والثانية مطرب وغنى فى الفيلم «محروم».

وفى فيلم «الصبا والجمال» إخراج محمد سلمان أيضا غنى «ما تلونيش خدودك.. ما تلبسيش حلق» وقام بدور مطرب ينتقم من مطربة علم أنها تبتز أموال والده. وغنى أيضا مع صباح «مش كل السمك سمك إنتى فهمانى».

أما فيلم «عتاب» فقد تم عرضه عام ١٩٦٤ وقامت بالبطولة أمامه المطربة الأردنية سميرة توفيق. وبعد عام تم عرض فيلمه «كده من جديد» ليعود بعده إلى القاهرة ويبدأ فى تصوير فيلم «عشاق الحياة» مع نادية لطفى ومن إنتاج وإخراج حلمى حليم والفيلم قريب الشبه فى قصته مع فيلم عبد الحليم حافظ الناجح «حكاية حب» وهو لنفس المخرج أيضا وقد غنى فيه و «النبى لنكيد العزال» أما آخر أفلام محرم فؤاد فقد تم عرضه ١٩٧٥ لعنوان «الملكة وأنا» إخراج عاطف سالم وغنى فيه «دارى جمالك» و «مراسيل».

أشهر نجوم «الفلجة» فى الفنانين المصريين محرم فؤاد. وعمر الشريف و «الفلجة» هى فارق بارز بين السنتين العلويتين فى الأسنان واسمها العلمى Tias Tima. ويقال إن «الفلجة» تعنى الحظ السعيد. كما أن فيها جمالا. وتميزا لأن وجودها نادر بين الناس. وتعطى لأصحابها جاذبية خاصة عند الابتسام. كما أنها - كما يقول الأطباء - لا تؤثر فى سلامة النطق ومخارج الألفاظ.

وكان محرم يرى أنه محظوظ بالفعل. ووجود «الفلجة» بين أسنانه دليل على ذلك، وفعلا كانت هذه «الفلجة» علامة مميزة لمحرم وساعدته على التميز سينمائيا.

ومحرم لا يخرج عن القاعدة التى التزم بها كل المطربين العرب الذين ظهروا على الشاشة الفضيـة. فقد التزموا جميعا بأسـلوب «تمثيل المطربين» فهم ليسـوا جون ترافولتا المطرب الأمريكى الذى أصبح «شـجيع السـيما» والذى ينطبق عليه المثل الشعبى «قد الكف ويقتل ميه .وميت ألف».

فلم يتمسـك بأن يكون صاحب صوت حنين وأداء رقيق وهندام جميل، وقد يقترب من جون ترافولتا كل من محمد فوزى، وأحيانا فريد الأطرش.

وما يدل على أن محرم كان يتمتع بدرجة عالية من الذكاء الفنى. فلم يستسلم. ويرضى بالغناء فى اسـتوديوهات الإذاعة والملاهى. إنما شد الرحال إلى بيروت. وكان كثيرون من أهل الفن قد سـبقوه هربا من القوانين الاشـتراكية فى مصر. و.. بقى هناك من ١٩٦٢ إلى ١٩٧٥ ثم عاد هربا من الحرب الأهلية فى لبنان. صور خلالها خمسـة أفلام هى «حكاية غرام» و «عتاب» و «الصبا والجمال» و «ولدت من جديد» و «الملكة وأنا».

وواصلـت الصحافة المصرية تجاهلها لمحرم حتى إذا مـا أصيب باحتباس فى الصوت سافر على أثره إلى سويسرا للعلاج. تحولت الصحافة إلى النقيض، وجعلت من مرضه مادة يومية وزادا لها، وكأن الأمر قد تحول إلى فرصة يظهر فيها محرم بالمطرب الذى توقف عن الغناء ولن يعود. إنها قضية يشتم منها رائحة الشماتة من جانب منافسى المطرب الكبير، لكنه عاد يغنى.

وفى مصر. تعرض محرم للحادث الثانى فى حياته فقد صدمته سيارة مسرعة فى الشارع أمام منزله بعمارة ليبون بالزمالك.

وفيلم «الملكة وأنا» آخر أفلام محرم فى لبنان. قامت ببطولته جورجينا رزق ملكة جمال لبنان. والكون. وهى جميلة جدا لكن صوتها ليس كذلك. وقد اختفى صوتها ليحل محله صوت الإذاعية الكبيرة حكمت الشربينى.

أخرج فيلم «الملكة وأنا» عاطف سـالم ١٩٧٥ عن قصة لعلى الزرقانى سـيناريو على سـالم. وقام هو فيه بدور مرشد سياحى يحب فتاة لبنانية جاءت لمصر فى زيارة سياحية. وغنى لها «دارى جمالك دى العيون بصاصة» و «مراسيل وبعتنا المراسيل».

وطبعا فالفتاة هي جورجينا رزق. التي ربط الناس بينها وبين محرم بالزواج، ولم يحدث إنما تزوج سيدة لبنانية أخرى لا تقل جمالا عن جورجينا هي ماجدة بيضون وهي مصرية من دمياط وتتكلم المصرية وأنجب منها ابنه الوحيد طارق. ولما انفصلا تزوجت هي دبلوماسي عربي وعاشت معه في دولة إفريقية غير عربية. وعاش طارق معها، وأسس هناك شركة يديرها بنفسه، للاستيراد والتصدير.

حن طارق للغناء، فجاء للقاهرة واستعد لفتح فرع لشركته فيها، حتى يتسنى له أن يغني ويكمل المسيرة التي توقف عندها والده منذ سنوات. لكن الله وهب طارق الجاذبية والوسامة مثل والده، لكنه لم يشأ أن يورثه جمال الصوت من أبيه.

وكما كان زواج محرم وملكة جمال الكون جورجينا رزق من باب الخلط بين زوجته اللبنانية ماجدة بيضون وبين جورجينا، فإن زواجه من تحية كاريوكا لم يكن إلا إشاعات هكذا قال لي محرم.

منذ ربع قرن تقريبا ذهبنا أنا وزميلي مصور أكتوبر محمد حسن إلى بيت محرم شقة ١١ عمارة ليبون بالزمالك، سحبت العود النائم على إحدى الكنبات لأدندن. فلما استمع إلى الدندنة أسرع بالمجيء ليطلب مني إعادة العزف، وعرف أنه لحن لم يقدر له أن يرى النور لأني اعتزلت التلحين، وقبلها الغناء، من أجل الصحافة.

لم يقتنع بكلمات الأغنية، فاتصل بصديقه الشاعر عمر بطيشة وطلب منه كلمات على وزن الكلمات القديمة للأغنية، وفي بحر ٢٤ ساعة، سجل الأغنية في استوديو الإذاعة، وتم اعتمادي ملحنا من خلالها، أما الكلمات فكان يقول المؤلف في مطلعها:

«حمد الله ع السلامة.. عدينا بالسلامة.. ورجعنا بالسلامة.. من بعد عبورك بينا.. من فوق البحر لسينا..من نصر لنصر مشينا.. وراك واتبدلت بينا الأيام..».

ومنذ هذا التاريخ انتهت العلاقة الصحفية بيننا لتبدأ علاقة صداقة وحب، على رغم اللقاءات المتباعدة بيننا في عزبته بقرية شبرامنت، وقبل أن ينتهي من بناء فيللا مدينة أكتوبر.

لم تكن ألحان محرم على رغم كثرتها في مستوى صوته القوي الجميل المتميز والمتفرد، فقد كان صوت الرجولة المشحون بشجن داخلي قادرا على التطريب الجميل.

وهذا لا يمنع أنه لحن أغاني كثيرة ناجحة لنفسه منها «قولي بحبك قوللي» و «غدارين»،

و «مسا التماسى يا قمر» و «جرح الحبايب» و «الليل الدافئ» و «قد غلاوة الحب» و «لو كان الأمر أمرى» و «بحبك يا شبرا» وغيرها.

وسوف يذكر التاريخ الفنى والوطنى لمحرم أنه أول من أعاد بعث نشيد ثورة ١٩١٩ «بلادى.. بلادى» الذى لحنه سيد درويش، ثم أصبح نشيدا شعبيا ونغمة وطنية مصرية كاسحة قبل أن يختاره الرئيس أنور السادات نشيدا قوميا لمصر.

وسينما محرم فؤاد لم تشمل قالب «الدويتو» أو الثنائى، فلم يغن مع مطربات أى حوارات غنائية باستثناء حواراته المسرحية مع عفاف راضى فى مسرحية «دنيا البيانولا» التى أخرجها كرم مطاوع عام ١٩٧٤، مع ملاحظة أن معظم المطربين لهم فى السينما أكثر من دويتو. لكن كل بطلات أفلام محرم لم تكن بينهن مطربة باستثناء صباح وسميرة توفيق.

كذلك لم يشارك فى أى أوبريت بعيدا عن مسرحيته «البيانولا» و «القشاط» للأطفال. وعلى رغم قيامه ببطولة غنائية فى مسلسلين للإذاعة هما «حب ونغم» «وحياة كامل الخلعى».

لكن محرم غنى أكثر من قصيدة منها «أنا لا أشكو همى ففى الشكوى انحناء.. وأنا نبض عروقى كبرياء» تأليف كامل الشناوى. وغنى «سامحينى» تأليف محمد الماحى، و «مصر لم تنم» لفتحى سعيد و «أبحث عن سمراء» و «الليل الدافئ» وغيرها.

وغنى محرم لمؤلفين منهم مرسى جميل عزيز، وحسين السيد وعيد الوهاب محمد وصلاح فايز ومحمد الماحى وسمير الطائر وعمر بطيشة وعاطف النمر، وللمحنين منهم فريد الأطرش ومحمد الموجى. وعبد العظيم محمد ورياض السنباطى وإبراهيم رجب، وفاروق الشرنوبى وفاروق سلامة وخالد الأمير.

وتباينت أساليب الأداء عند محرم. تماما كما فعل فريد الأطرش الذى غنى ألوانا شديدة العاطفية. وأخرى شعبية جدا. فقد قدم محرم أغنيات عاطفية رقيقة منها «يا حبيبى قوللى آخرة جرحى إيه» و «انت عنى بعيد» «ندم» «سامحينى» «ولا تلومونى» وغنى أيضا الأغنية الريفية التى مثلت بداية قوية له عندما غنى فى فيلم «حسن ونعيمة» «رمش عينه» و «الحلوة». وغنى بلهجة أولاد البلد وبصوت فيه لمسة تطجين شعبى. فى أغنيات «يا واحشنى رد عليه» و «سلامات» و «يا غزال اسكندرانى» و «مسا التماسى» و «أنا عايز صبية» و «ماتلونيش خدودك».

كما غنى عددا قليلا جدا من الأغنيات الخفيفة والمبتسمة منها «هراس جاى» و «خمسة سياحة».. و «مش كل السمك سمك إنتى فاهمة»..

لقد ذكرت بعض الصحف أن لمحرم ٩٠٠ أغنية والحقيقة أنها لا تزيد فى مجملها على ١٨٠ فقط.

وفى كل الألوان التى قدمها كان صاحب صوت متميز، نعتبره ملمحا من ملامح زمن الفن الجميل، فهو رقيق، خبير، قوى قوة سلسة جدًا.